صور من الحياة :

على هامش القبعـــة

للأستاذ كامل محمود حبيب

لقد صادفت مقـالات « القبعة » هوى فى نفوس قراء « الرسالة » القراء ممن يحسون فى أنفسهم غيرة وحماسة ، فأهدى إلىّ الأستاذ عدنان أسعد كتابه «خمر وجمر» وقدم هديته الأنيقة المشكورة بقوله « أهدى إليك كتابي المتواضع لقاء مقالك الماتع القبعة » ولمست فى تضاعيف كتابه ثورة على هذه الفئة من الناس الذين لبسوا القبعة حيناً من الزمان لينبذوا المعانى السامية للوطن والدين واللغة ، حيث يقول : « ... وهكذا تفرنج الشرق إذ انسلخ من شرقيته وسباً من تقاليده ، فلبس القبعة وتبرنط ووضع البيبة وتهبّط ، ولوى لسانه اليعربي برطانة الغرب ولغة الهمج ثم تبجح فقال : هى المدنية يا قوم فقلدون ! »

***

وكتب إلى الأستاذ عبد الحميد يونس المدرس بكلية الآداب يقول « ... لم يكن المنظر الذى أثار اهتمامى هو منظر النيل الساحر تقف على ضفتيه حمد النخيل الباسقات والأشجار الخضر المتشابكة وهو يتلألأ سانياً رقراقاً يصافح أشعة الشمس الذهبية عند الأصيل كأنه يودعها وداع الحبيب الوامق إن حمّ الفراق . ولاهو الصحراء الساجية بالليل الثابتة بالنهار كأنها أمواج البحر المتلاطمة مسحت عليها يد ساحر رهيب فجمدت فى مكانها لا تريم . ولاهو لعاشقين تأجج الهوى فى قلبيهما ضراماً من شباب وشواظاً من عاطفة فذابت أنفاسهما مع لظى النجوى وزفرات الغرام . ولا هو للزهر النضير الثالق وهو يزهو فى رونق ويختال فى بهاء وينفح أريجه فى خيلاء وقد تعهدته يد صناع فبدا على نسق يخطف البصر ويأسر اللب . ولكنه منظر يشغل أذهان العامة وتطرب له أفئدة الأطفال ... هو منظر سيارة معطلت فى عرض الطريق ، فتقدم لها حمار يجرها . والسيارة رمز الجديد وشارته والحمار صورة القديم ورمزه .

تجاربا وتخاصما وتداورا ، وسخر الأول من الثانى فى عزة وكبرياء ، وأغضى الثانى عن الأول فصمت وطأطأ رأسه فى استسلام ، ثم اندفع على سنته لا يعبأ به ولا يلق السمع إلى حديثه وحاول كل منهما أن يقتل صاحبه ويمحوه ويبيده ، حتى إذا حزب الأمر بأحدهما ونزلت به النازلة وضاقت به سبل الأرض أسرع الثانى إليه يمسح عنه ما أضناه ويهوّن عليه ما آده ويعينه على ما أعضل عليه ... ما أشدهما خصمين وما أكرمهما عدوين !

هـذه — يا صاحبي — هى الحرب الصحيحة بين الجديد والقديم ، ولكنها فى مصر — وطننا العزيز — معركة عنيفة فى ضعف ، شديدة فى فتور ، لا تسمو عن المهاترات الوضيعة والألفاظ النابية والمفارقات العجيبة ، يريد الواحد أن يحط من قدر أخيه على جهل منه وصلف .

وأنت هنا لا تـكاد تفرّق بين الجدد والمحافظ إلا من أسماء خاوية تسمى بها البعض دون البعض الآخر ، فليت شعرى هل آن الأوان لأن تفقه السيارة الجددة أنها ستصاب — فى وقت ما — بالعطب فيتقدم إليها الحمار فى رزانة وهدوء ليقيلها من عثرتها وليكون لها عوناً وساعداً . أو أن يفهم حمارنا المحافظ أن من سماحة الطبع وسمو الخلق أن يهفو نحو غريمه — فى ساعة الخطر — ليكون صاحب الشدة ورفيق العسرة ؟

والمجدد هنا رجل لبس القبعة حيناً أو بعض حين وقرأ الكتب الغربية سنة أو بعض سنة وانكب على الثقافة الأفرنجية ردحاً من الزمان ، ثم جاء يلوى لسانه برطانة بربرية ويملأ شدقيه بكلمات أعجمية على جهل منه بالغرب ، لا ريب فهو قد عاش زماناً فى بلاد الغرب ولكنه لم ينصهر فى البيئة ولم يتغلغل إلى عاداتهم ولم يكشف من أخلاقهم ، فبدا فج العقل والعقيدة والفكر . وما به إلا أن يهدم تراث الشرق وهو تراث أقامته الأجيال العديدة على دعامات قوية ثابتة .

وداء هذه الأمة أنها تبذر — دائماً — فى القبعة روح الغرور والكبر حين تفسح لها المكان المرموق ، وحين تضعها فى صدر الجامعة ، وحين تهيىء لها مجلساً عالياً بين العمامة والزعماء . والقبعة — هنا — تتكلم وتخطب وتلمّ فتملأ قلوب الشباب من أبنائنا خلطاً وخرفاً ، وتزين لهم — فى أسلوب سياسى رقيق —

أن يمقتوا الدين والوطن واللغة ، وتدفعهم – في مكر ولين – إلى الهاوية .

وأكبر همّ صاحب القبعة أن يعبث بصورة الوطن الحبيبة لتبدو شوهاء مبتورة تعافها النفس ويزدريها العقل ، وأن ينقب عن النقائص يلصقها بأهله ثم يتحدث بها في طلاقة وإسهاب ، وأن يأخذ نفسه بالبحث عن نواحي الضعف في بني وطنه فيذيعها في غير اكتراث ولا مبالاة . ثم ينكر علينا النبوغ والعبقرية والسمو ، ويسمنا بالتقصير والخمول والتخاذل ، وينسى أنه واحد من هذه الأمة لا يستطيع أن يهرب من عاداتها ولا أن يتفلت من خصالها .

ولشد ما يحلو لصاحب القبعة أن يتمادى في الغي وأن يسترسل في المكابرة ، فيتصنع احتقار المصري ويحاول جهده أن يحط من قدره ، وأن ينال من كرامته ، فهو لا يؤمن به عالماً ولا أديباً ولا صانعاً ولا ... ثم يتبجح فيجهر برأيه السقيم في غير تحرج ولا حياء .

وأنا أعرف رجلاً من ذوي القبعات رأى أثراً من آثار الصناعة ، ظنه مصرياً – وفي رأيه أن الصانع المصري رجل متواكل واهي العزيمة مغلق الحس – فهاله ما في هذا الأثر من ضعف وتداع ، فراح يتحط على الصنعة والصانع يثلبهما بأقذع الكلم ويسلقهما بألفاظ غلاظ . فلما تبين له أن الصانع افرنجياً تراجع في ندم وتخاذل في ضعف كأنما عزّ عليه أن ينـال من الأفرنجي وهو سيده ومثله الأعلى .

وأعرف رجلا آخر من هـذه الفئة ترامى إليه أن أجنبياً ذا مكانة أدبية يوشك أن يزور مصر ، فأخذ يترقب مقدمه في شغف ، ثم اندفع يستقبله في حفاوة وأفسح له من قلبه ومن عقله في وقت معاً ، وملأ صفحات الصحف بما أغدق عليه من إطراء ومدح . ثم حاول أن يمن عليه الأجنبي فيزوره في داره لتسعد الدار بزورة السيد الأجنبي ، ولتظفر العائلة بفضل الأديب الغربي ، فتشاغل هـذا عنه وتعلل بالتعلات ، ثم ضاق بإلحاحه فرده – بادئ ذي بدء – في هوادة ، ثم ضاق به مرة أخرى فرده في عنف . وحزّ في نفس صاحبنا أن يندفع إلى الرجل في غير صبر ، وأن يتشبث في غير أناة ، ثم لا يلقى – بعد هـذا كله – إلا الاحتقار والمهانة ، فأطلق فيه لسـانه وقلمه يثلب علمه وأدبه وأخلاقه ، ويزدري رجولته وإنسانيته وفنه ...

هذه هي أخلاق القبعة ، وهذه هي عقيدتها ، وهذا هو إيمانها ، فتى ... متى تتحلل من قيودها ؟ إن القبعة – ولا ريب – هي بقايا عهد زال منذ زمان ، عهد السيطرة الأجنبية البغيضة ، عهد الاستخذاء والضعف ... فتى ... متى تتحلل من قيودها لتمسح عنا عار التعبد والخضوع ؟

***

وجاءني صديق من ذوي القبعات هائجاً يهدر وهو يتلظى غيظاً وغضباً ، وفي يده مجلة أسبوعية وصحيفة يومية ، ثم تقذف بهما أمامي وهو يرغي ويزبد ، ثم قال : « أرأيت ، أرأيت الصحافة في بلادنا وهي تشوه الحقائق ؟ » قلت : « ماذا ؟ ماذا أصابك ؟ » قال : « هذه الصحيفة نشرت مقالا بعنوان : الشعب الإنجليزي ذهبت أخلاقه . وهذه المجلة كتبت مقالاً بعنوان : مشش الترجمان في لندن ! » . قلت : « وماذا يعنيك وأنت رجل مصري الجنس ؟ » قال : « هذا افتراء بيِّن على شعب عظيم ! » قلت : « ومالك أنت ولهذا الشعب ؟ » قال : « لقد عشت هناك سنوات فما شعرت بشيء مما يقولون ! » قلت : « عجباً ! إن في الصحيفة أرقاماً تنطق ، وإن في المجلة صوراً تتكلم ! » قال : « فأنت تصدق هذا البهتان الواضح فتنكر على هذا الشعب العظيم خصاله العالية وأخلاقه السامية ، وهو قائد العالم وسيده » قلت : « وأنت تنفض عن الدعايات النكراء ، والشائعات الشوهاء ، يروجها عنا أصحاب الأغراض السقيمة في البلاد الأجنبية لتحط من كرامتنا و ... » قال مقاطعاً : « إنهم لا يقولون إلا حقاً » قلت : « كأني بك قد تعلمت هناك – يا سـيدي – كيف تنبذ المعاني السامية للدين والوطن واللغة ! »

وأحس هو بأن كلامي تحزه وخزاً شديداً ، فانطلق من لدني في ثورة وغضب ، ولكني لم أعجب أن يكون هذا الفتى قد استحال في سنوات إلى قبعة تتفلسف فلسفة واهية متحطة ! !

وقص عليّ صديق حبيب إلى نفسي قصة زواج القبعة ...

فليت شعري هل أفلح صاحب القبعة أن يكون زوجاً وأباً ورب أسرة ؟ !

كامل محمود حبيب